من الحياة

الصـــديق الضائع

للأستاذ منصور جاب الله

كان لي صاحب ما شهدت له نديداً فيما رأيت من الصحاب . كان أكبر الناس في عيني ، وكان رأس ما أكبره في عيني أني ما عرفت عنه غميزة تميل به إلى جانب الغرور ، على ما به من مزايا فاضلة ، وعلى ما كانت تفيض به جوانب نفسه من البصر بفنه والعلم القائم على أساس وطيد ، وعلى ما كان يتدافع في شرايينه من دم الشباب النضير . وفي كل أولئك حوافز للذهاب بالنفس والتكاثر بالسطوة إلى مدى بعيد .

وكان في عقدي أن من رأى هذا الصديق نظرة أجله ، ومن خالطه معرفة أحبه . وجدت فيه ما افتقدت في سائر الصدقان : تواضع على علم ، وحياء في ورع ، وسذاجة من غير تكلف ، وبساطة تنأى عن التعقيد . وكل أولئك محبب إلى النفس ، وكل أولئك شيء عزيز المنال .

ولازمت خدني هذا ملازمة شديدة ، توثقت عناصرها على الأيام ، حتى حسب الناس أن لا فكاك لازدواجنا ، وأن أحدنا لا غناء له عن رفيقه ، وكذلك كنا لا نفترق إلا على موعد من لقاء قريب ، في الإصباح والإمساء ، وإذ كنا متجاورين في السكنى . لم تفرق بيننا إلا المضاجع ، وما أثقل الساعات التي تتجرم على بعادنا ، وما أطول اللحظات التي تنقضي دون لقائنا .

هنالك بين ربوع الاسكندرية الناعمة ، كنا نساحل على شاطئ البحر الجميل في أخريات الربيع وفي ذرور الصيف ومطالع الخريف ، وكانت لنا ثم ملاعب ومرابع ، لا يرنق صفاءنا اعتكار ، ولا ينال من عشرتنا لسان ، إذ كان قوامها الإخلاص المتبادل ، وعمادها المودة المشتركة ، ومن ثم كانت أحاديثنا ومسامراتنا لا تنصرف إلا لما يتفشى الناس من أحداث ، وما يتوسعه العالم من حدثان . وكانت آراؤنا في الحياة — على سذاجتها وسطحيتها — مطبوعة بطابع من الهدوء والبعد عن الاعتساف .

وإذا كنا على سفر ، تواعدنا على اللقاء في القطار ، ثم تجمعنا الصحبة في المنزل ، وقد نتقاسم الغرفة الواحدة في بعض الأحيان ، ونشارك في الطعام والشراب ، ويعفي مني لشأني ، كما أصحبه لقضاء ما يريد .

* * *

كانت تلك حالنا إلى أن فرقت بيننا تصاريف الزمان ، [illegible] إلى الرحيل [illegible] عمل لي ، وبقيت أنا أتنقل [illegible] بين القاهرة والاسكندرية . بيد أننا لم نفترق إلا بالجسم فقد اتصل قلبانا وروحانا ، فكنا نتناجى بلغة الأرواح كما كنا نتنادى بلسان البريد ، ثم نتصل وننفصل والأيام لا تزيد علائقنا إلا توثقا واتصالا .

* * *

وإذ قامت علاقتنا على الصدق والإخلاص ، كان لي أن أزجي النصح إلى صديق ، إذا تجانف لإثم أو خيل إلي أنه كذلك ، وأي الناس ترضى سجاياه كلها ، ولقد كان يتقبل مني النصح المبذول لعلمه أن مصدره الإخلاص ، وتلك حالي معه .

وفي إحدى زوراته المتباعدة لي توجهت إليه باستصلاح ما أنكرت منه ، فشهدت منه بوادر الامتعاض على بساطة المؤاخذة مع داعي الإخلاص ، وتظاهر بالقبول بل تظاهر بالرضى والاقتناع .

وكانت تلك هي المرة الأولى رأيت فيها صديقي يظهر غير ما يبطن ، فلم يحاول بعد ذلك أن يلقاني ، وإن كنت سعيت إليه — علم الله — مراراً ، إذ عز علي أن تهدر صداقتنا بمثل هذه السهولة ، وقد عملت في تكوينها السنون الطوال ، ورواها الإخلاص وسقتها النزاهة . وكاتبته مراراً فأبى أن يتنزل إلى الاجابة علي ، فعلمت أنه يروم قطيعتي والازورار عني ، فأمكنته مما يريد . وفي النفس موجدة حرى ، وفي القلب أسى لا يطاق .

* * *

وبالأمس كنت أسير في بعض الطريق فلمحت على مبعدة مني رجلاً عرفته غير أني أنكرته ، عرفت فيه شيئاً وأنكرت منه